من روائع تراثنا القديم :

الصوفية هم أهل القرآن

ورجال العمل به ، والفهم له

للمؤرخ الصوفى العلامة السراج الطوسى

قال الشيخ رحمه الله : قال الله عز وجل : « هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » وقال : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » وقال : « يس والقرآن الحكيم » وقال « حكمة بالغة » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « القرآن حبل الله المتين ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به هدى »

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أنه قال : « من اراد العلم فليتل القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين وقد قال الله تعالى : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب »

فعلم أهل العلم بهذا الخطاب أن فى كتاب الله الذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو القرآن الذى لا شك فيه لأحد من المؤمنين أنه من عند الله ، أن فيه هدى وبيانا لهم فى جميع ما أشكل عليهم من أحكام الدين ، بعد إيمانهم بالغيب ، وهو التصديق بما أخبرهم الله به عما غاب عن أعينهم .

ثم قال فى آية أخرى : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »

فأفادت هذه الآية لأهل الفهم من أهل العلم ، بعد إيمانهم بالغيب أيضا ، أن تحت كل حرف من كتاب الله تعالى كثيراً من الفهم مذخورا لأهله على مقدار ما قسم لهم من ذلك ، واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن ، مثل قوله عز وجل : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » وقوله : « وكل شىء احصيناه فى إمام مبين » وقوله : « وإن من شىء

إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

وقالوا فى معنى قوله عز وجل : « من شيء » إن معناه : من شيء من علم الدين ، وعلم الأحوال ، التى بين الخلق وبين الله تعالى وغير ذلك .

وقال عز وجل فى آيه أخرى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » يعنى بذلك إلى الذى هو أصوب .

فعلم أهل الفهم من أهل العلم أن لا سبيل إلى التعلق بالأصوب مما يهدى إليه القرآن ، إلا بالتدبر والتفكر والتيقظ والتذكر وحضور القلب عند تلاوته وعلموا ذلك ايضا بقوله : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ليتذكر أولو الألباب » .

ثم استفاد أهل الفهم من هذه الآية ايضا ، أن التدبر والتفكر والتذكر ، لا وصول إليه إلا بحضور القلب ، لقول الله عز وجل : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » يعنى حاضر القلب .

ثم لم يترك على ذلك حتى ذكر القلب فى آية أخرى فقال : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .

ثم لم يترك على ذلك حتى أقام إماما للخلق فى القلب السليم ، فقال عز وجل « وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم » قال أهل الفهم : القلب السليم الذى ليس فيه غير الله عز وجل

وقال سهل بن عبد الله ، رحمه الله : « لو أعطى العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى فى آية من كتاب الله تعالى من الفهم ، لأنه كلام الله تعالى ، وكلامه صفته » .

وكما أنه ليس لله نهاية ، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهمون على مقدار مايفتح الله تعالى على قلوب أو لبائه من فهم كلامه ، وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهوم الخلق لأنها محدثة مخلوقة .

وقد ذكر الله تعالى الهداية فى القرآن بقوله : « هدى للمتقين » قال الشيخ رحمه الله : وقد ذكر الله تعالى وصف جميع أرباب القلوب وأهل الحقائق : من المريدين ، والعارفين ، والمتحققين والواجدين ، وأهل المجاهدات والرياضات ، والمتقربين إليه بأنواع الطاعات ، ظاهرا وباطنا ، كما فى كتابه ، وهو قوله عز وجل ، فيما يصف به

ملائكته : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » وقال للمؤمنين : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » .

فكان فى هذه الآية شرح وبيان فى صفة الذين يؤمنون بالغيب بابتغاء الوسيلة .

ثم ذكر الذين يسارع لهم فى الخيرات ووصفهم فقال : « الذين هم من خشية ربهم مشفقون » فوصفهم بالاشفاق من الخشية والخشية والاشفاق اسمان باطنان وهما من أعمال القلب ، فالخشية سر فى القلب خفى . والأشفاق من الخشية أخفى من الخشية .

ثم بعد ذلك ، المرتبة الشريفة ، والحال الرفيعة التى وصفهم الله تعالى بها من الخشية والاشفاق وغير ذلك فقال : « والذين هم بآيات ربهم يؤمنون » وكانو قبل الخشية والأشفاق مؤمنين بآيات الله ، فعلم أنه أراد بذلك زيادة الإيمان ، ألا ترى أنه يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان بعد الرسالة والنبوة ، وذلك قوله عز وخل « فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته » .

فاستنبط أهل الفهم واستفادوا من هذه الآية أن زيادة الإيمان لانهاية لها ؛ وأن جميع ماوصل إليه أهل الحقائق من بدايتهم أن ذلك من حقائق الإيمان وزيادته وبراهينه وأنواره ؛ وأن لا نهاية لذلك .

ثم قال عز وجل : « والذين هم بربهم لايشركون » فذكر أنهم لايشركون بربهم بعدما وصفهم بالخشية ، والإشفاق والإيمان .

فاستفاد أهل الفهم ايضا من ذلك أنه من الشرك الخفى الذى يعارض القلوب من رؤية الطاعات وطلب الاعواض بعد ماشهد شاهد صريح بالايمان أن لاضار ولا نافع ، ولا معطى ولا مانع إلا الله .

فعند ذلك شمروا وجدوا وتضرعوا إلى الله تعالى وطلبوا منه الخلاص لقلوبهم بصدق الاخلاص فى الاخلاص ، وعلموا أنهم على قدر إخلاصهم فى إيمانهم ينظرون إلى دقائق شركهم ورياءهم الذى هو أخفى من دبيب النمل على الحجر الأسود فى الليلة الظلماء .

تعريفات للتصوف

- سئل الجنيد عن التصوف فقال : « أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة » .
- وسئل رويم بن أحمد عن التصوف فقال : « استرسال النفس مع الله تعالى على مايريده » .
- وسئل — سمنون — عن التصوف فقال : « أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء » .
- وسئل أبو محمد الجريرى عن التصوف فقال : « الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » .
- وسئل عمر بن عثمان المكى عن التصوف فقال : أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى للوقت » .
- وسئل على بن عبد الرحيم القناد عن التصوف فقال : « نشر متام واتصال بدوام » .
- وسئل ذو النون المصرى عن الصوفى فقال : « هو الذى لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سلب : هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء ، فآثرهم الله على كل شيء » .
- وسئل سهل بن عبد الله التسترى عن الصوفى فقال : « من إذا استقبله حالان أو خلقان حسنان فيكون مع الأحسن والأعلى » .
- وقيل لعبد الواحد بن زيد : من الصوفية عندك ؟ فقال : القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم ، هم الصوفية » .